

من زكريات الطفولة :

ظننته يوم القيامة ولكن الله سلم للاستاذ كامل كيلاني

لعل هذه أول صورة انطبعت في ذاكرتي من ذكريات الحياة كلها . أذكر أنني وجدتني جالساً في مكتب (كتاب) قريب جداً من داري إلى جانب ابن أختي ، ولست أدري لماذا استمعجبتني إلى مكتب الفقيه وأنا في مستهل نشأتي ونجر طوائفي ؟ وكان الأطفال في مرج ومرج لا أعرف لها سبباً ، بل لملي عروت السبب فيما بعد ، فقد كانت غيباب الفقيه فيما أظن سبب ذلك الاضطراب ، ولم يكن عريف المكتب على ضخامته وطول قامته يقادر على السيطرة على أرائك الأستقياء الحريين ، وامل الأطفال كانوا يسخرون به لأنه أشل (أعنى أن إحدى يديه ولعلها اليسرى شلاء) ، ولا أدري كيف حاول أن يثبت مسباراً في الحائط فلم يجد شيئاً يدهنه به ، فلما ضاقت به الخيل عمد إلى محبرة سمكة ، وكأنا خيل إليه أن ضخامتها ستحميها من الكسر ، ولعله نسي أنها من الزجاج المفرغ ، وأنها لن تقوى على دق المسبار ، على أنه لم يكده يبدأ المدة الأولى حتى خرق المسبار المحبرة وسال مدارها الأسود على وجه العريف ويديه ونوبه !

فهال الأطفال وصيحوا وصفقوا من فرط مرورهم بما رأوا ، ولا زالت صورة العريف ماثلة أمامي ، منطبعة في ذاكرتي ، وأنا أملى هذه السطور ، كأنما رأيت منذ لحظات يسيرة وهو يحاول جهده أن يهدى من نائرة الأولاد ، ولا يزيدم ذلك إلا تمرداً وصخباً ، وقد زادتهم حيرته وارتباكته نشاطاً ومرحاً . وهنا يدخل الفقيه ، وهو شيخ رائع السمات ، فارغ الطول ، متجهم الوجه ، قوي الشخصية ، فيسود السمات والفرع ، ويستولى علينا الخوف والهلج ، ويتبدل كل شيء في لحظة واحدة من الضد إلى الضد ، فلا يكاد يجروء أحد على التنفس خشية أن نسمع نأسته فتجلب عليه شراً مستطيراً ، ويأمر الفقيه باحصار (الفلقة) ، ولا يكاد ينتهي من خامس الأولاد في الصف الأول ، حتى تعتريني القشعريرة ، فقد جاء الدور على ، وإلى لأترب إشارة الفقيه بوضع

رجلي في حبل الفلقة ، وقد استولى الذعر على نفسي ، إذا بجلجلة أشبه بقصف الرعود ، وصيحات عالية مدوية تأخذنا من كل مكان وإذ بسقف المكتب بطير كل مطار ، وقد تناثرت ألواحه وتطايرت أركان الجدار وقواعده ، واختفى الشيخ والعريف وسببة المكتب في لحظة واحدة عن عيني فلم أدر أين فروا !

وما أذكر بعد ذلك إلا أنني كنت أمشي مع ابن أختي في طريقنا إلى البيت والأحجار تتناثر من حولنا في كل مكان ، فتقتل من تقتل ونحن لاهيان لا ندري من أمرنا شيئاً . فلما بلغنا الدار - وهي قريبة من جبل المقطم - إذ بالملع يستولى على كل من فيها ، وإذ بزجاج النوافذ محطم . وأذكر أنني سألت ابن أختي عما حدث فقال لي : إن القيامة قد قامت ! ولم أفهم حينئذ معنى هذه الجلبة ، ولا عرفت ما هي القيامة ، ولا كيف تقوم ، وامل لم أفهم معناها الغامض أكثر مما يفهم السامع الحال الذي حين يقال إن ناعماً صحاً ، أو ساحياً نام ، أو زائراً قدم ، أو قاعداً قام . ولم أفهم حقيقة ما حدث إلا بعد سنوات عدة ، فقد عرفت والمهدة على من حدثني ، فلم أستق الخبر حينئذ إلا من حوذى كان عندنا ، وقد كان رحمة الله عليه ندمت أي إذا وزنته بميزان النفاة والاطلاع ، ونصف فيلسوف إذا وزنته بميزان الفهم والإدراك . حدثني ذلك الفيلسوف الأمي قال : « كان يستغل في مخزن الذخائر الحربية الملاصق لجبل المقطم أحد المهال ، فالتقى على غير انتباه بما تبق من لفاة التبغ ، فلم تلبث أن علفت بما حولها من البارود ، فوقمت الكارثة وأطارت من حجارة المقطم ما أطارت ، وقتلت من الأناس والحيوان من قتلت ، ودمرت من الآتار ما دمرت . وكان الحوذى يشير بإصبعه إلى رؤوس الآذن التي طاحت بها وهي قريبة من دارنا . لقد كان هول القيامة يتمثل لي حينئذ في عصا الفقيه وقد فرحت بنجاتي منها ، فلما كبرت تبين لي أنني فرحت بالنجاة من خطر موهوم ، لأنني كنت أصغر من أن يماقبتني الفقيه أو يهيم بضرني ، فلم أتجاوز الثالثة من عمري حينئذ ، ونسيت أنني مجت من هلاك محقق بأعجوبة من الأعاجيب . وعلى ضوء هذا الحادث المهائل فهمت في قابل أيامي دقائق الصورة البيانية الرائعة التي أبدعها خيال المتنبئ شاعرنا الأكبر حين قال لسيف الدولة :

وقفت وما في الموت شك لواقف كالك في جفن الردي وهو ناظم

لكامل كيلاني